

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة المقامة في مسجد المركز الإسلامي في هامبورغ

بإمامة حجة الإسلام و المسلمين الأستاذ السيد محمد ناصر التقوي

(نائب إمام المسجد)

(ليوم ٢٢ ربيع الأول ١٤٣٠ المصادف ٢٠/٣/٢٠٠٩)

الموضوع: المداراة في الإسلام (٢٠):

« الحمد لله رب العالمين، و الحمد لله الذي لبس العزّ و الكبرياء و إختارهما لنفسه دون خلقه جعلهما حمىً و حرماً على غيره و إصطفاهما لجلاله. و الصلوة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين محمدٌ عليه أفضل الصلوة و على آله أجمعين و على صحبه المنتجبين المكرمين.

عباد الله أوصيكم و نفسي بتقوى الله و العمل بطاعته و إجتناّب معصيته، فإنّه من يطع الله و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.

خصائص المتقين:

إنّ للتقوى خصائص و علائم خاصّة يُشار إليها في القرآن الكريم و منها ما جاء في الآية ١٧٧ من سورة البقرة في قوله تعالى: « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ. »

و من أهمّ الخصائص البارزة للمتقين هي إنطباق القول و العمل كما نرى ذلك في نهاية الآية المذكورة في قوله تعالى: « أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ. » فإنّ الصدق هو التوافق بين القول و العمل و لكنّ الذين ينشغفون بالظواهر من الأمور و ينشغلون بها و ينطقون و لا يعملون، هم الذين يتلفون وقتهم بما لا معنى له و لا مغزى. و لذلك نرى تعبير « و الذين آمنوا و عملوا الصالحات. » في الكثير من الآيات و ذكر كلمة العمل الصالح مقروناً بالإيمان.

و ليس المتقين هم الذين من أهل الثقة و الإعتماد في الأمور الإجتماعية و هم الذين ينفقون في السراء و الضراء من أموالهم و طاقتهم للفقراء و المحتاجين فقط ، بل إنّهم ذوي العزم و الثبات في عبادته جلّ و علا بخضوع و خشوع كما يصفهم الباري عزّ و جلّ في الآيات ١٥ و ما تليها من سورة الذاريات في قوله تعالى: « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) »

و علاوة على كل ذلك ، فلا ينحصر عمل المتقين بمعونة الفقراء و المحتاجين ، بل إنهم يقومون بالعبادات و المناجاة في الليل و يستغفرون بالأسحار من دون رياءٍ و تظاهر و حين لا يراهم أحدٌ من الناس. فالتوافق بين القول و العمل إذن هو من أهم خصائص المتقين كما يصفهم المولى العزيز القدير في الآية التي ذكرت في قوله تعالى: « . . وأولئك هم المتقون . »

و ما نراه في الروايات و الأحاديث الإسلامية عن خصائص المتقين هو تقارن القول بالعمل و تطبيق العقيدة في الحياة بالصدق و الوفاء كما نرى مصداق ذلك في ما قاله أمير المتقين عليّ (ع) في - خطبة همّام - المدرجة في كتاب نهج البلاغة في أوصاف المتقين بأنّ « . . منطقتهم الصواب . . » و إنهم لا يقولون ما لا يعملون و لا يعدون ما لا يوفون.

و في رواية عن الإمام محمد الباقر (ع) قال فيها: « إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث و أداء الأمانة و الوفاء بالعهد. » (ميزان الحكمة) و نسأل الله تبارك و تعالى أن يجعلنا من المتقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات و هو وليّ التوفيق.

خلاصة الكلام عن المداراة:

لو أردنا أن نجمع خلاصة الكلام عن المداراة بالإستناد على ما جاء في القرآن الكريم و الأحاديث النبوية و الأقوال الحكيمة التي تُروى عن الأئمة (ع) ، فإننا نستطيع أن نقول بأنّ « الدين هو المداراة » كما كان الرسول الأكرم المصطفى الأجد أبو القاسم محمد (ص) يعرف نفسه بأنّه رسول المداراة. كما و أنّ الله تبارك و تعالى يوصي رسوله الأمين (ص) في القرآن الكريم بالمداراة ليس مع المسلمين فقط ، بل مع تابعي الأديان الأخرى و حتى مع المشركين.

إنّ من الأسس الأخلاقية في الإسلام هو الإرتباط الوثيق بين المداراة و العقل الذي هو من أكبر المواهب الإلهية للإنسان و الذي به يمتاز الإنسان على باقي المخلوقات، كما قال رسول الله (ص): « إنّ أعدل الناس هو أشدّهم مداراةً للناس. » و لذلك فإنّ الإنسانية تنتج من العقلانية و كلاهما مرتبطان مع البعض، كما قال أمير المؤمنين عليّ (ع) « رأس الحكمة مداراة الناس. »

إنّ المداراة هي ما قال عنه رسول الرحمة و الرأفة: « مداراة الناس نصف الإيمان. » إنّ الإسلام لا يوصي بالمداراة مع العائلة و الأقرباء فقط ، بل إنّّه يوصي بالمداراة حتى مع الأعداء.

و رأينا فيما ذكرناه من روايات إسلامية تشويق و ترغيب بكلّ جدّ للمداراة إذ أنّ للمداراة نتائج إيجابية في الحياة و أنّ لعدم رعايتها آثار سلبية. كما و أنّ سيرة الأنبياء و الكبار من رجال الدين في الإسلام كانت المداراة مع جميع أقشار المجتمع سواءً إن كانوا أصدقاءً أو كانوا من الأعداء.

لقد تحمّل رسول الله (ص) منذ بداية البعثة الكثير من الأذى من المشركين حتى قال « ما أودى رسولٌ مثل ما أوديت » و لم يكن ردّ فعله بالرغم من كلّ ذلك سوى دُعائه قائلاً « اللهم اغفر لقومي بأنهم لا يعلمون » (بحار الأنوار ج ٩٨ ص ١٦٧) پ

حين أنتصر الرسول الأكرم (ص) في فتح مكة المكرمة كان على قمة السيطرة على الأمور السياسيّة و الاجتماعيّة و لكن لم يصدر منه سوى أعلى الدرجات من الرأفة و الرحمة إذ أنّه أعلن العفو العام الذي شمل حتى أولئك الذين آذوه طوال الأعوام الكثيرة و كان هذا هو الرسول الذي وصفه الله تبارك و تعالى في القرآن الكريم بقوله: « إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ. »

و كانت النتيجة الأخلاقيّة و الاجتماعيّة للمداراة في الإسلام أنّ الكبار من الشخصيات الإسلاميّة و أعلاهم رسول الله (ص) الذي قال عنه الله جلّ و علا أنّه الأسوة الحسنة و أهل بيته الطيّبين الطاهرين (ع) و أصحابه المنتجبين و الآخرين من الأولياء و الشخصيات الكبار و العلماء و المفكرين كانوا قدوة للناس و هم الذين زرعوا شجرة التفكّر و التأمل في البلاد الإسلاميّة و امتدّت جذورها و إنتشرت أغصانها و كانوا المثل العليا في الأخلاق و المداراة.

إنّ الفلاسفة و العرفاء الكبار من أمثال محيي الدين العربي و المولا الرومي و سعدي و الفرطوسي هم من ثمار تلك الوصايا الأخلاقيّة الثمينة. و يقول الفرطوسي:
إنّما المداراة أخو العقل و العقل هو الذي يحكم على النفس
كما و قال السعدي: يا سعدي لا سبيل سوى الثبات و التحمّل و المدراة.

إنّ شرح و بيان سيرة المداراة كما يشرحها هؤلاء الكبار يستغرق الوقت الطويل، و لكنّ المهمّ هو أنّ المداراة التي هي رسالة الإسلام و يجب أن تكون لنا أساس التعامل مع الآخرين في الحياة الفرديّة و الاجتماعيّة، كما قال رسول الله (ص) أنّ المداراة كانت سيرة كلّ الرسل و الأنبياء و الأديان الإبراهيميّة.

إنّ المداراة بين شخصين متساويين أمرٌ جيّدٌ مرغوبٌ فيه و لكنّ الأحسن من ذلك هو المداراة من طرف الأقوى تجاه الأضعف. و كذلك الأمر بالنسبة إلى الدّول و الحكومات كما وصّى أمير المؤمنين (ع) المالك الأشتر حين خوله الصلحيّة بكلّ تأكيد بالمداراة مع الناس.

إنّ قوام الصلّات الاجتماعيّة و حلّوتها هو من المداراة و حسن المعاشرة كما نرى ذلك في الآية ٨٣ من سورة البقرة في قوله تعالى: « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ». و كما نرى في ما ينقله المفسرين في تفسير هذه الآية مثل العلامة الطباطبائي في كتابه « الميزان » هو أنّ حسن المعاشرة مع الناس كافرهم و مؤمنهم ، مسلمٌ أو غير مسلم. و بناءً على ذلك فإنّ الذي يتكلّم عن الإسلام و الإيمان و لكنّه ليس من أهل حسن المعاشرة و المداراة مع الجميع فإنّ إيمانه و إسلامه فيه خلل. إنّ المسلم الحقيقيّ هو الذي يعمل بالتعاليم الإسلاميّة و يتّخذ الرسول الأكرم (ص) أسوة لنفسه في كلّ التصرفات و الأخلاق مع الآخرين.

و نأمل إن يكون في هذا اليوم الذي هو بداية الربيع و فيه تبدأ الأزهار و الأوراد بالإنفتاح أن تنفتح في صدورنا أزهار الفضائل و المداراة و حسن المعاشرة مع الجميع و أن تزدهر أشجار الأخلاق الحسنة في صدورنا لتحمل ثمار الملاطفة مع الجميع إنشاء الله تبارك و تعالى إنّّه هو وليّ كلّ نعمة.

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.